# تقديم الكتاب

خالد العظم ، رجل الدولة وداهية السياسة ، اشهر من ان يعرف . فهو احد القلائل الذين صنعوا تاريخ سوريا الحديث ، وشاركوا المشاركة الفعالة في ارساء اللبنة الاولى لوجودها الاقتصادي وفي تجديد طموحها القومي .

عرفته في مركز المسؤولية ، وعرفته بعيدا عنها ، كما عايشت محنته يوم كان سجين السفارة التركية التي احتمى بها في دمشق ، ويوم قدم الى لبنان لاجئا سياسيا مريضا ، ليلفظ انفاسه الاخيرة وهو يردد : سوريا الحبيبة ، لتعش .

كان سياسيا محترفا ، وكان في الوقت نفسه مولعا بالادب والفن ، احب هواياته الى نفسه القراءة والرسم ، واكثر ما يقرا كتب التاريخ والمذكرات السياسية .

لقد عرف خالد العظم من اخبار القدماء وآدابهم فوق ما كان يعرفه القدماء انفسهم ، وآمن بأن اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بين جديد الامة وقديمها هو اليوم الذي تهون فيه ويحال بينها وبين الابداع .

كان يؤمن بأن التجديد لا يتم الا باحياء القديم والاخذ بما يصلح منه للأوان الحاضر والزمان الآتي .

وكان يسلك الى تصوير عواطفه الطريق نفسها التي يسلكها الشعراء ، طريق العبارة القوية المؤثرة التي تستثير اعجابك لاستثارها بعقلك وحسك وشعورك معا .

كان رحمه الله مجاهدا وفيا ، قوي الحجة ، بعيد النظر ، شجاعا ، لا يستكين للاحداث أو يستسلم للصعاب ، بل يتحداها بطاقة جبارة لا تعرف مللا او كلالا .

وكان في غروب شمسه ودنو اجله ، يحدثني بالذكريات الخوالي ، ذكريات الماضي الجميل واهله ، وعلائقه بهم ، وما اشتركوا فيه من افراح او تقاسموه من اتراح . فيبدأ رحمه الله سائلا ملحا في سؤاله ، ثم يثوب الى رشده تدريجا حتى اذا يئس من الجواب اطمأن الى يأسه ، فاقتنع بالذكرى ، ومضى يستحضر الاحداث بالذكرى ليقصها على نفسه كأنما كان يخاطب انسانا آخر .

وعندما شق عليه المرض اخذ يتحدث عن رحيله بايمان الذي ادى الامانة حتى آخر المطاف . وقد جاءت نهاية ذلك المطاف يوم الخميس في الثامن عشر من شهر فبراير ( شباط ) لسنة ١٩٦٥ .

وسمعته يردد آخر كلماته : « اوصي بأن ادفن بجوار الامام الاوزاعي ، فلا تحملوا نعشي الى دمشق لئلا يتفاعل السوريون مع هذا الموقف فتقوم المظاهرات ويسقط الجرحى . انني ضنين بدم اخواني في مماتي بقدر ما كنت ضنينا به في حياتي » .

ذلك خالد العظم ، « المليونير الاحمر » ، الذي جاهد وناضل منذ نعومة اظفاره ، فكتب زهاء نصف قرن من تاريخ سوريا وتاريخ العرب الحديث .

كان يؤمن بالعمل الهادف الصامت ، المترفع عن الغوغائية التي ما استخدمها يوما للانطلاق . فقد قال لي مرة وكنا نتحدث عن بعض الزعامات في العالم العربي ، وكيف انه لم يستطع ان يكون «زعيما جماهيريا» : « أريد ان اكون دائما الريح التي تسير الشراع ، وليس الشراع الذي تسيره الريح » .

هكذا كان بالفعل ريحا جبارة دفعت الشراع بعيدا بعيدا .

ومما قاله في منهاجه الانتخابي في آب ( اغسطس ) ١٩٤٥ :

« اني اشهد الله على اني لم استوح هذا البرنامج الا من قناعتي به ، واعتقادي ان الفرد الى الزوال مهما عمر ، وان على من يثق به الشعب ان يستوحي جميع اعماله من ايمانه بمجد امته ، وبمصلحة مواطنيه وسعادة الشعب الذي هو منه واليه ، وتمهيد الطريق لاطفالنا من بعدنا ، لان من لا يخطط لمستقبل امته يكون قد حكم على بلده بالجمود ، وحال دون التطور الوثاب الذي يساعدنا على الحياة الحرة الشريفة الرغدة . »

وبعد ، فان هذه المذكرات التي تخرج لاول مرة هي ثورة فكرية ، ومدرسة سياسية ، وعبرة تاريخية ، وضعها رحمه الله بكل موضوعية وامانة ، فأعطى الاحداث حقها من البحث والتحليل وعلق عليها بدقة وتجرد . كان امينا في سرد الوقائع ، لم يجامل ولم يحاب ولم يكذب ، بل ظل بعيدا عن الدعاية والتضليل .

هكذا ارادها خالد العظم ان تكون ، وهكذا حملت « الدار المتحدة للنشر » الامانة ، لتقدم الى الجيل الصاعد نصف قرن من تاريخ امته ، يعكف على دراسته ليستخلص العبرة من دقائق العرفان .

عمر المفتي